الدين، الفلسفة، والسؤال المهاجر

الشيخ شفيق جرادي

الكلمات المفتاحية: شفيق جرادي، الدين، الفلسفة، الإنسان، السؤال.

لماذا التفتيش عن معنى السؤال، حين البحث في الدين والفلسفة؟!

ألأنّه مفتاح باب العلم والمعرفة وشرط تحصيلهما؟ وهل هو يُعدُّ جزءاً مكوِّناً للنظم الفلسفيّ أو الاعتقاد الدينيّ؟ أم أنّه متقدِّم عليهما تقدُّمَ التمهيد لصلب الموضوع؟ وهل في مفارقته لنظامها إخراجٌ له عن دائرتيهما بحيث يصبح السؤال منتمياً إلى فضاء لا فلسفيّ ولا عَقَديّ يتحكَّمُ ويتجادل ويتشاكل مع كلِّ نَظْمٍ فلسفيٍّ وعقائديّ؟!

وهل هذا إلّا تضادٌّ في موضوع واحد، والتضادّ في مثل هذه الحال محكومٌ عليه بالامتناع؟! أم أنّ الأمر يكشف عن خبايا هي أعمق من مسار هذه التساؤلات الافتراضيّة؟ ومن هذه الخبايا التي تستجلبها التساؤلات بدلالاتها نذكر:

أ. إنّ علينا التفريق بين روح الفلسفة والدين وبين النظم الفلسفيّ والاعتقاديّ. ففي الأوّل منبعُ الذات في انطلاقها وغائيّاتها وهي البدايةُ لكلِّ "لماذا" والمطمحُ لكلِّ "لامٍ تعليليّة"، بينما في الثاني مدارجُ الموضوع وجسمُه الجامع له ولباسه المائز له باللون والهيئة، عن كلِّ لون وهيئة مغايرة، بحيث إنّ السؤال، حتّى وإن لم يكن جزءاً من أيّ نظام وهيئة فلسفيّة أو دينيّة خاصّة، فإنّ هذا لا يعني أنّه في أساسه وجذره يُباين الفضاء أو الروح الدينيّ والفلسفيّ.

ب. إنّ من حيثيّات دلالة فعل السؤال، أنّه فعل واحد من حيث المناط أو المِلاك الانسانيّ المعرفيّ – الفلسفيّ منه أو الدينيّ – إذ إنّه ينبعث من ذاك الميل النفسانيّ عند الإنسان، المسمّى بالطلب، والذي منه كانت كلُّ تجربة وكلُّ رحلة فلسفيّة ودينيّة مواكبة للدهشة التي تُثير في بساط الواقع الكونيّ – المسكون بسكونيّة الإلفة والعادة – مكنوناتَهُ العجيبة ودلالاته المعنائيّة المستترة، لتبحث عن التعليلات والروابط والغائيّات كما عند أرسطو؛ أو هو طلبُ السؤال الممتهنِ ألمَ الشكّ الوجوديّ ووجعَ القلق النابع من مجابهة العدم، الناجمِ عن إحساسنا بالخوف من الفناء، كما عند تيّارات الفلسفة الحديثة وأصحاب المسلك الوجوديّ؛ أو هو، فوق هذا وذاك، النزوعُ المستغرق في العجيب المدهش حدَّ الارتهان والخشية الممزوج بالحبِّ والقداسة – المسمّى بهيام السؤال والطلب – الذي يملك عنان القول المعبِّر عن علاقة الذات بالمقصد والذي يرتحل عن الذات نحو حالٍ يتلبّس فيها صفاتٍ

يعاين بها المطلوب، حتّى يستحكم عندَهُ الواقع فيمازجُه ممازجةَ الوحدة رغم تنوُّع حيثيّاتها ويعبُرُ بالسؤال من حال إلى حال دونما قطيعةٍ بينه وبين الحال الأوّل، ودونما استقرارٍ على وضعٍ محدَّد ليكون السؤالُ مساءلةً دائمة ويكون السائلُ مهاجراً على الدوام. وهو عند كلِّ محطّة أو مقام يتشكّل على هيئة نظام فلسفيٍّ خاصّ أو مقولةٍ عقائديّة ممذهبة، ليتجاوزها بعد ذلك بروح لا حدَّ لحدودها، ومدىً لا انحصار لوسعته، فيبقى هو هو عند الدين وعند الفلسفة، وهو غيرُهُ من جهةِ تمثُّلِه لموقعٍ خاصّ ومقامٍ محدّد فيهما.

وهنا نستكشف من دافع السؤال ما يتجاوز حدود آنات الزمن لنلقاه عند كلِّ منعطف تاريخيٍّ، منذ أن كان التاريخ حاضناً للإنسان في أصل تكوُّنه وجبلّته الأولى، وهو المشهد الأوّل لتعالي السؤال الذي يهجر موضع تساميه نحو التفسير والتجلّي في المفهوم والمنظور والمقولِ ليُحايِثَ بذلك الزمنَ، فيبني وجهةَ العلاقة الجدليّة بين الزمن، في ضروراته ومتطلّباته، وبين تطوُّرات الجواب الدينيّ أو الفلسفي الساعي نحو التكامل والتماميّة. وهو بهذا يُمثِّل المشهد الثاني من رحلة السؤال المهاجر، والذي يعمل على تضاعيف امتدادات الزمان والمكان ليتجرَّد منهما، وليُجرِّدَ الأجوبة عن الجزئيّة فيتعقّلَ الكليّةَ الحاكمةَ على التفاصيل، والمحكومةَ لنظام الشمول والاطّراد والديمومة في مملكة التذهُّن الفلسفيّ؛ أو يعمل على التطهُّر من دنس التزاحمات الوهميّة والتكثُّرات المحكومة بنير الفناء والموت والقلق واليأس، ليلقى المقدَّس في جاذبيّة الشوق والرحمة والمحبّة المدفوعة بنزوع الذات نحو الأكمل، والمجذوبة بأمل اللقاء الذي عبَّر عنه القرآن، عن لسان بعض الأنبياء، بقوله {**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**}[1].

واللقاء هنا، إنّما يكون بتمام الفكر والقِيَم والسلوك والحال، وهو لقاءٌ يستدعي السؤالَ، أو إن شئت فقل: الطلبَ المهاجرَ دوماً، إذ صيغةُ المهاجَرة قائمةٌ على المفاعلة، وهي الحركة المتّصلة المستمرّة التي قد ترى في أعراضها بعضاً من الاستقرار، إلّا أنّها في جوهر حقيقتها تقومُ على حركةٍ دائميّة ممتدّة، وبهذه الحركة يحدث كلُّ تشكُّل، إذ عند اكتمالات هذه الرحلةِ للسؤال المهاجر فإنّه يستعيد حيويّةَ انطلاقه بحركةٍ، وإن كانت دائريّةً، إلّا أنّها لا تستعيد ما انعدم، إذ إيجادُ المعدوم مستحيل في لغة الكدح نحو اللّه، أو إن شئت فقل: نحو تمام الحقيقة وكمالها.

[1] سورة **العنكبوت**: الآية 26.

ج. يبقى القول إنّ استقرار الجواب الأحاديّ، في تعليله أو نظامه، على السؤال الوجوديّ المهاجر دوماً هو ما أورث، وما زال يورث، الشطحَ والهَجْر. وأقصد بالهجر هنا القطيعة والقطع، والقَطَّاع هو من اكتفى بما عند الذات وحوَّل الموضوع إلى شأن من شؤون الذات، ليختزل بذلك كلَّ الحقيقة وليعلن القطيعة بينه وبين كلٍّ من سواه، إذ هو في مساحة الفلسفة صاحب المملكة الفضلى التي يتربَّع على عرشها وحولَهُ حواشي المفردات والحدود والروابط والأحكام، وعنه تصدُرُ عرائسُ القول وحوريّات البيان وإن باستغلاقٍ عن الأفهام والمرامي حتّى يكاد حاله أن ينطق قائلاً "أنا الحقّ"[2].

أمّا إن كان في مساحة الدين، فإنّ صدحاً للجواب عن سؤالٍ مُضْمرٍ غير معلن يكاد يقول مدّعياً، أنا الصراط، وقسيم الحقِّ والباطل، والجنّة والنار، والحياة والموت، بل أنا هو وهو أنا، وما في الجُبَّةِ الّا اللّه...

وما هذا الهجر إلّا بعد القطيعة مع السؤال المهاجر، والتي تسبّب في أفضل حالاتها قطيعةً بين الفلسفة والدين علماً أن لا فلسفة دون توسُّمٍ لجِبِلّة الإنسان التي فُطِرَ عليها – وهل الفطرة إلّا الدين –، ولا دين دون جواب وتعليل ونظْمٍ فلسفيّ للمراد والمقصود والمغيَّى.

أمّا إن أردنا الترقّي، فيمكن القول أن لا معنى دون التفات ولا التفات دون دهشةٍ وشكٍّ وقلقٍ وانجذاب، ولا هذه كلّها دون منبع للتساؤل ودون مهاجرة للسؤال، بحيث يكون منبع الحاجة إلى التفلسف ومنبع الحاجة إلى الدين واحد، وإن من حيثيتين تكامليّتين تقع الأولى عند الحاجة الفطريّة للقاء المبدأ وهي الدين، والثانية عند الحاجة لوعي اللقاء وهي الفلسفة. ومن هنا كانت الحاجة إلى تجديدٍ لفهم فلسفة دينيّة تقوم على السؤال المفارق، والسؤال المفارق من سنخٍ يختلف عن الدين كأنظومة، وعن الفلسفة كنظام لأنّه ينطلق من الإيمان؛ ودورُ المفارق، كما سِمَتُهُ، أن يكون متجرِّداً في عين أنّه متمازج؛ وهنا يكون معنى السؤال المهاجر أو الطلب المهاجر بين المعنى والمعنى، والحال والحال، والصفة والصفة، والذات والواقع، يفارق ولا يقطع ويتجاوز دون أن يُخلِيَ، حتّى إذا ما أردنا أن نلحظه في ميادين تجلّياته في الفكر والخارج وفي الذات والواقع، كان من الواجب علينا أن نميِّز بين متن الواقع ونفس الأمر، وهو الوجود المصاحب بوحدته للكلّ فكراً وذاتاً وخارجاً وواقعاً – بوحدةٍ حقّة – وبين تقسيم مبنيٍّ على ما نسمّيه بـ"الما بإزاء"، ونقصد به أنّ الذات بحقيقتها موضوع، لكنّنا، حينما نريد أن نقيس على قاعدة المغايرة، فإنّنا نسمّي الذات بإزاء

---

[2] كتاب **أخبار الحلاج**، اعتنى بنشره وتصحيحه وتعليق الحواشي عليه لوي ماسينيون وباول كراوس، (كولونيا: منشورات الجمل، 1999)، الصفحة 104.

غيرها ذاتاً ونسمّي غيرها بإزائها، أي بما يقابلها، موضوعاً، وهكذا الفارق بين الذهن والخارج. لذا، فإنّ الثنائيّة التي دمَّرت الذات وشيّأتها، بعد أن أهملتها، هي ثنائيّة افتراضيّة أوجبَتها الضروراتُ المنهجيّة، ثمّ ما لبثنا أن حكمنا عليها باعتبارها ضرورة مسلّمة لا تقبل الجدل، ومنها أخذنا نحكم بالقطيعة بين اللّه والإنسان، والأخلاق والمنفعة، والأفكار والوقائع، وهو ما أوصل الشطح إلى حدِّ العبثيّة العادمة والمعدمة حتّى أعلنّا عن موت القيم والحقيقة والأخلاق والأمل واللّه والإنسان وها نحن اليوم على أعتاب إعلان موت العالم.

إنّ من ألحّ المطلوب اليوم، هو أن نجدِّد في قيمنا ورؤانا الفلسفيّة واعتقاداتنا الاجتهاديّة الدينيّة، ونظرتنا للوجود والحياة والموت والألم والبلاء والبناء والمستقبل باستعادة أواصر العلاقة مع السؤال بما هو طلب الكيان والذات الواعية والمنجذبة، وأن نجدِّد العلاقة مع مفهوم الهجرة والمهاجرة المسؤولة. فإذا كان للسؤال في أصله قبْليّة حاكمة، عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى {**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**}[3]، ليكون السؤال الشاهد على النفس باقياً ما بقيت، مهاجراً معها عبر الأجيال وتكوُّن التاريخ وتبدُّل الأحوال، فإنّ المهاجرة تستعيد حيويّتها بمعرفة بَعْدِيّةٍ يُعلِنُ عنها القاصد للحقِّ بعد تجربة البلاء المعرفيّ، الفلسفيّ والدينيّ، الذي يخْبُرُ فيه الوقائعَ والحيرة وأحوال النفس والأمم حتّى يتكوَّن لديه عقل الخبرة فيعلن قائلاً، {إنّي مهاجرٌ إلى ربّي}[4] وهي رحلةُ هجرةٍ معرفيّة وصفها أمير المؤمنين عليّ (ع) وحدّث بها ابنه الإمام الحسين(ع) إذ يقول له فيما نقله نهج البلاغة "أي بني .. إنّي، وإن لم أكن عمرِّت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتّى عدت كأحدهم، بل كأنّي، بما انتهى اليَّ من أمورهم، قد عُمِّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره"[5].

ولا يقتصر عقل الخبرة هذا على مجرّد التوصيف ومعرفة الشؤون والأوضاع، بل يتعدّى ذلك ليَسْتَكْنِهَ معاييرَ الحُكْمِ من مثل قوله، "اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبّ لها، واكره لغيرك ما تكره لها". هذا على مستوى القيم السلوكيّة، أمّا على مستوى قيم المعرفة فيقول، "واعلم أنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفّة الألباب فاسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا أنت هُدِيتَ لقصدك، فكن أخشع الناس لربّك".

---

[3] سورة **الأعراف**: الآية 172.

[4] سورة **العنكبوت**: الآية 26.

[5] الإمام عليّ بي أبي طالب عليه السلام، **نهج البلاغة**، تحقيق محمّد عبده (بيروت: دار المعرفة) الجزء 3، الخطبة 269.

فهنا سير وسلوك مهاجرٌ يعمل على عصمة العقل والذات من آفّة العصبيّة الناتجة عن العُجْبِ الذي يعطّل المهاجر عن الكدح نحو المقصد فيقنعه بما هو فيه ليقع فريسة النهايات، إمّا بالشطح أو بالتكفير أو بالتعطيل. أمّا الصواب ومقتضيات حكمة الألباب، فهو السعي في الكدح لملاقاة وجه الحقيقة ومقاربتها، عبر التأمُّل والإبداع والتجديد الذي، وإن رآكم ممّا لدى الغير، عليه الحذر من أن يكون مجرّد خازن لما لدى ذاك الغير، أو مجرّد مقلِّد متّبع منساق. حتّى إذا ما اهتدى بعد جهد وجهاد معرفيٍّ في سؤاله الوجوديّ المهاجر فليخشع أمام الحقّ، إذ مقتضى الهداية نفيُ حيازةِ الحقّ، بل الاتّضاعُ أمامَهُ ولسان القول والحال {إنّي مهاجر إلى ربّي}. وفي ظنّي أنّ مثل هذه الرحلة المعرفيّة يستحيل أن يُكتب لها النجاح دون التوافُر على أرضيّة فلسفيّة فعليّة، ترى في الإنسان كائناً ممتدّاً بامتدادات داخليّة من خلال الزمن وبامتدادات خارجيّة عبر امتداد المكان. إلّا أنّه كائن يتعالى بحقيقة هويّته — وهي النفس الواعية — عن كلٍّ من الزمان والمكان، في الوقت الذي يرتهن للنقصان من طرفي الماضي والمستقبل وهو يقع فريسة تصرُّم آنات الحاضر وتبدُّل أحواله ومواضعه. والعجيب المدهش هنا، هو أنّ هذا الواقع الممتدّ والمنقوص، هو سرّ محافظته على ديمومة حركته بإرادة وجَلَد لأنّ المنقوصيّة هنا تشكِّل علّةَ التحفيز على الأمل ورجاء نيل الخلود. وفي هذه الزاوية بالذات يُقرِّر الفيلسوف إمّا القطيعة والخضوع لجبريّة المنقوصيّة ليتحوّل إلى واقعٍ بلا غاية وطموحٍ بلا أمل، وبالتالي إلى فكرة بلا معنى سرعان ما تنقلب إلى نقديّة عبثيّة هدّامة تتوخّى العدميّة والتوالد التكراريّ لسؤال غير مسؤول، أو أن يقرِّر خوض غمار المعنى في الواقع فيبذر الشوق والأمل والبهجة والهيمان المشغوف بحبّ المعرفة وحبّ الحقيقة متحدّياً أغلال النقيصة وإصر استهواء الخضوع لجبريّة الإمكان، طامحاً نحو وسعة في مستقبلٍ هو تمام معنى الحاضر والماضي، يُبنى بَقَدرٍ يُهندِسُه الإنسان المنجذب بامتداداتٍ هي فوق حدود الأين والكيف والوضع، ومتسلِّحاً بوحدة الطاقة المعرفيّة المتعالية بالعقل المنضبط بقواعده المنطقيّة، وبقوّة الخيال الثاقب، أو ما يحسن للبعض أن يسمّيه بحسّ النبوّة والإلهام، باعتباره قدرةً خارقة على فهم أطوارٍ للوجود فوق طور العقل، منتظمةً بنُظُم متسامية على الحدود والرسوم، مستفيضةٍ بقيم الخَلْقِ والخُلُق.

وإلى وقتنا هذا، فإنّ تجربة رحلة السؤال الفلسفيّ قد قطعت أشواطاً واسعةً ومتنوّعة فتداخلت مع الوجود حتّى كانت فلسفة ميتافيزيقية، وتداخلت مع الأخلاق والقيم والعلم واللغة وألبستها من هيئة صيغتها الفلسفيّة، حتّى إنّها عندما أرادت أن تدرس الدين، أحالته إلى تفسيراتها ومفرداتها ومنظوماتها فتولّدت لدينا فلسفة يهوديّة ومسيحيّة وإسلاميّة وفلسفة الأديان الشرقيّة وغير ذلك، وهذا الأمر أولد محاذير منها: إنّ الاعتقاد الدينيّ لدى هذه الأديان

شكَّل مركز الرقابة وسلطة حدود التأويل على تلك الفلسفات حتّى ولو لم تعلن تلك الفلسفات صراحةً عن ذلك؛ في الوقت الذي شوَّهت فيه الفلسفة، بنظامها الاستيعابيّ الاستحواذيّ، لغة الدين وقدرته على التعبير عن روح ما يكتنز، حتّى صارت مفردات من مثل الجوهر والطبيعة والفرد والأقنوم والشخص والماهيّة وغير ذلك، علاماتٍ على حصول القطيعة بين المقرَّرات العقائديّة والمعتقدين، وخلت الأديان من قدرتها التواصليّة وجاذبيّتها الروحيّة وشفافيّتها المعرفيّة بعد أن تمَّ التلفيق بينها وبين الفلسفات، فلا نِلنا فلسفةً ولا حظينا بدين.

إلّا أنّ هذا الكلام لا يعني التخلّي عن واحد من الاثنين، بل يعني أن نفتح للسؤالِ الوجوديّ المفارقِ أن يمارس وفاق الممازجة بمهاجرةٍ تفتح العقل على عرش القلب، وتفتح القلب على تدبُّر العقل لنحصل على "فلسفة الخبْرة"، وهي فلسفة ترى في الوجود أفقاً واحداً عضويّاً في علاقة أقسامه، وتُفعِّل كلّ طاقةٍ من طاقاته بحيث نسمح لكلِّ متأمِّلٍ مفكِّرٍ متدبّرٍ أن ينطلق من القاعدة التي يشاء، شرط أن لا يتوقّف عند نقطة الانطلاق فينغلق على الذات، ويستدرج كلّ آخَر كعنوان هامشيّ في سلطة حضوره. كما أنّ عليه النظر إلى كلِّ منطلقٍ وقاعدة، كنقطةٍ متّصلة بغيرها في حكم خطّ الدائرة المعرفيّة الفلسفيّة أو الدينيّة، ليتحقّق التكامل بمدارج موصولة على امتداد الزمن والجغرافيا، على امتدادات الأمم والهويّات، فيكون التعارف والتآلف الذي عبَّر عنه اللّه في كتابه العزيز {**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّه أَتْقَاكُمْ**}[6].

والتقوى قيمة، بل إنّ الإكرام قيمة، فإذا كان سبيلُ التواصل بين اللّه والإنسان هو القيم، فمن بابٍ أولى أنّ صلة ما بين الإنسان والإنسان أن تكون القيم أرفع من أن تُختَصَر بفلسفةٍ دون غيرها، أو دينٍ دون غيره فهل إلى فلسفة دينٍ، منبُعها ومآلها الذي لا يُحدُّ وملاكها ومقصدُها الإنسان؟!

[6] سورة **الحجرات**: الآية 13.